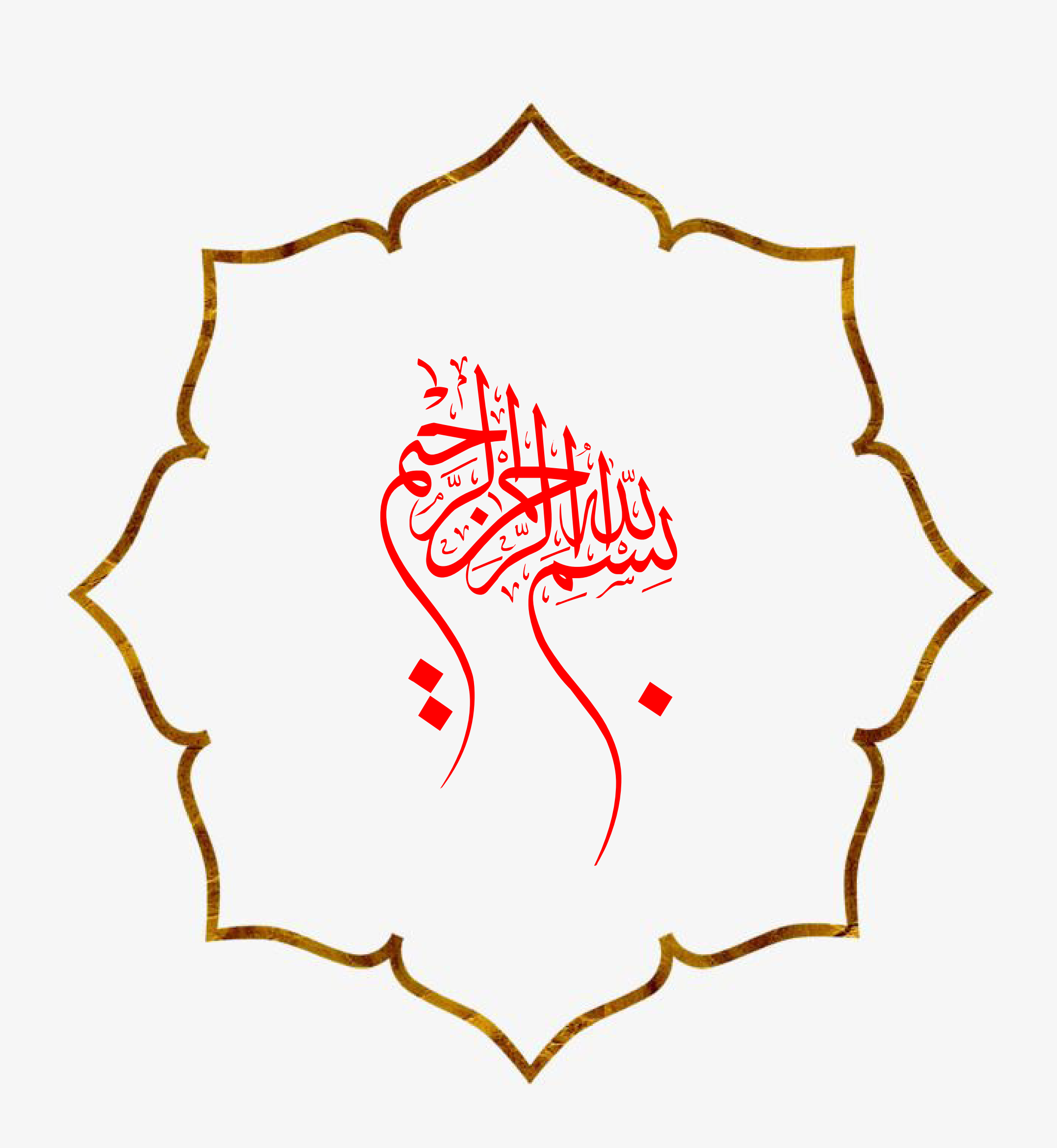
الإرشاد
إلى حُسن الأخلاق

كتبه

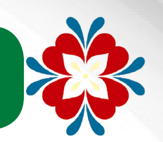
عبد الله بن محسن الصاعدي

الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ / ٢٠٢٤م


بسم الله الرحمن الرحیم







مقدِّمة

من عبدالله بن محسن الصاعدي إلى ولده وكل من يقرأ هذه النصيحة من ذريته وعموم المسلمين.

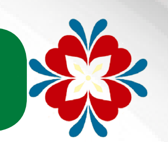
الحمد لله كثيرا والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.

أما بعد:

اعلموا رحمني الله وإياكم أن غاية المؤمن في هذه الدنيا هي ابتغاء مرضات ربه ومن ثم وجب عليه الجهاد في تطويع النفس لنيل تلك الغاية، وإن السبيل

للوصول لمرضات الله باتباع أمره ونهيه المتمثل في الشرع الذي جاء به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن أعظم الأوامر التي ينبغي للعبد اتباعها وتحقيقها وإعمال النفس على تجريدها لله حتى يلقى ربه، هو توحيد رب العالمين وذلك بإفراد العبادة له وحده دون سواه، فيسعى العبد المسلم أن تكون أعماله خالصة في القصد والتوجه لله عَزَّوَجَلَّ، وكل التفات قلبه للصمد الواحد الأحد وقد فصلت ذلك لك يا بني في كتابي **(المرشد إلى التوحيد)** ومن ثم إذا جرد العبد قلبه وعمله لله حرص أشد الحرص على أوامر الإسلام العظام وأركانه الشداد وهي الصلاة والزكاة والصيام والحج فأداها لله حق تأديتها متبع في ذلك سنة نبيه دون زيادة أو نقصان أو تفريط وإفراط.





ثم عليك يا بني بعد ذلك أن تسـوس نفسك على الأخلاق الحسـنة والخصال الحميدة سعيا منك في تحصيل محبة الله لك.

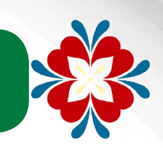
ولنيل احسن الخلق مما بعث به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**إنَّما بُعِثْتُ لأُتممَ صالحَ الأخلاقِ**»[(١)].

ووصى به خيـر صحبة، فعن عبد الله بن عمرو بن العـاص، أن معاذ بـن جبل أراد سـفرا، فقال: يا رسـول الله، أوصني قـال: «**اعبُدِ اللهَ ولا تُشْـرِكْ بِهِ شـيئًا، قالَ: يا رسـولَ اللهِ زِدْني، قالَ: إذا أسـأْتَ فأحْسِـنْ، قـالَ: يا رسـولَ اللهِ زِدْنِي، قالَ: استَقِمْ، ولْيَحْسُنْ خُلقُكَ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (٨٩٥٢) واللفظ له، والحاكم (٤٢٢١)، والبيهقي (٢١٣٠١) باختلاف يسير

(٢) المستدرك على الصحيحين (٧٨٢٥) خلاصة حكم المحدث: صحيح الإسناد



وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يا أبا ذر، «اتَّقِ اللهَ حيُث كنتَ وأتبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُهَا وخالِقِ الناسَ بخُلُقٍ حسنٍ»[1].

وجعل حسن الخلق آية ودليل على كمال الإيمان ومقياس للتفاضل بين المؤمنين.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله، «أكْمَلُ المؤمنينَ إيمانًا أحسنُهُمْ خُلُقًا»[2].

وعن أبي هريرة، أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ألَا أُنبِئُكم بخيارِكم؟ أحاسِنُكم أخلاقًا»[3].

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، وأحمد (٢١٣٩٢)

(٢) المستدرك على الصحيحين (٢) حكم المحدث: صحيح على شرط مسلم

(٣) أخرجه أحمد (٨٨٢٢) واللفظ له، والبخاري في (الأدب المفرد) (١٣٠٨)، والبزار (٩٤٤٢) باختلاف يسير

ثم بين رسولنا لمن أقام الأخلاق في نفسه وسعى في تكميل ما نقص منها في طبعه بالفضل الجزيل عند قيام الناس لرب العالمين

فعن عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: **(ألا أُخبِرُكم بأحبِّكم إليَّ وأقربِكم منِّي مجلسًا يومَ القيامةِ؟)** - ثلاثَ مرَّاتٍ يقولُها - قُلْنا: بلى يا رسولَ اللهِ قال: **(أحسَنُكم أخلاقًا)**[1].

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: **«إنَّ الرجلَ لَيدرِكُ بحُسنِ خُلُقِه درجةَ القائمِ بالليلِ، الظامئِ بالهواجِرِ»**[2].

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: **«ليس شيءٌ أثقَلَ في الميزانِ من الخُلُقِ الحسنِ»**[3].

---

(١) تخريج صحيح ابن حبان (٤٨٥) إسناده حسن

(٢) صحيح الترغيب (٢٦٤٤) حسن لغيره

(٣) صحيح الجامع (٥٣٩٠) حكم المحدث: صحيح

وعـن أبـي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: سـمعت رسـول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقـول لأصحابه: «**أتدْرون ما أكثرُ ما يُدخِلُ النارَ قالوا: اللهُ و رسولُه أعلمُ، قال: الأجوفانِ: الفـرجُ و الفمُ، و مـا أكثرُ ما يُدخِلُ الجنَّـةَ؟ تقوى اللهِ وحُسنُ الخُلُقِ**»[١].

فاذا علمت بني أمر أهذه فضله وهو جزء من مبعث محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان حريا بك يا أن تسوس نفسك عليه وتجاهدها حتى تجملها بأحسن الأوصاف من الأخلاق .

وحسـن الخلق هو والتحلي بالفضائل و التخلي مـن الرذائل، بحمل النفس على مـا يجملها ويزينها

(١) صحيح الأدب المفرد (٢٢٢) حكم المحدث: حسن

والبعـد عما يقبحها و يشـينها من بذل الندى، وكفّ الأذى، واحتمال الأذى،

ثم قد تسـألني يا بني ما السبيل إل تحصيل الحسن من الأخلاق

اعلـم أرشـدك الله لمرضاتـه أن صـلاح النفـس واسـتقامتها على محاسـن الأخلاق وبعدها وتركها لمسـاؤيها إنما يكون بقدر تمسك المرء بكتاب ربه وسنة رسوله فإذا نظر العبد في آيات التنزيل وأعملها في نفسه تحقق له مراده بعد توفيق الله له

ومـا جاء في كتاب ربنا مـن أمر بحمل النفس على أحسن الأخلاق



■ في قوله الله تعالى في تقوى الله :

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)﴾ [الحشر: آية ١٨].

■ وقوله في الأمانة :

* ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة: آية ٢٨٣]

■ وقوله سبحانه في كظم الغيظ، والعفو عن الناس :

* ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ [آل عمران: آية ١٣٤]

■ وقوله في التسامح والإعراض عن الجاهلين :

* ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)﴾

[سورة الأعراف: آية ١٩٩]

■ وقوله في الإحسان والصبر:

* ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة الزمر: آية ١٠].

■ وقوله في الإحسان إلى الوالدين والأقربين، واليتامى والمساكين والجار، وصلة الأرحام:

* ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة النساء: آية ٣٦]

■ وقوله في الصبر على المصائب:

* ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [سورة آل عمران: آية ٢٠٠]

■ وقولـه في الأمر بالمعروف والنهي عـن المنكر والدعوة إلى الخير والى الإسلام:

* ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران: آية ١٠٤]

■ وقوله في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وحسن الخطاب:

* ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل: آية ١٢٥].

■ وقوله في التوكل على الله:

* ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [سورة الفرقان: آية ٥٨].

■ وقوله في التعاون على البر والتقوى:

* ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾

[سورة المائدة: آية ٢]

■ وقوله في القناعة وخفض الجناح للمؤمنين:

* قال تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

[سورة الحجر: آية ٨٨].

■ وقوله في عدم الكبر والفخر والخيلاء:

* ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ [سورة لقمان: آية ١٨]

■ وقوله في الإيمان بقضاء الله وقدره:

* ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [سورة التوبة: آية ٥١].

ثم عليك بني بالنظر في سيرة خير المرسلين الذي وصفه ربه بقوله سبحانه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [سورة القلم: آية ٤] وذلك بقراءة ما كتبه العلماء في سيرته وأحواله ومعاملته لربه والناس، وأجود ما كتب في هذا الباب كتاب الشمائل المحمدية للترمذي وكتاب الأنوار في شمائل النبي المختار للبغوي.

فقد تمثل فيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسمى مكارم الأخلاق، وتجمعت فيه كل الصفات الحميدة،، والخصال النبيلة التي لم تجمع في بشر قبله ولا بعده، فشد رحلك ويمم وجهك نحو الوارد عن رسول الله من قوله وفعله وما حكي عن خلقه فطبقه في نفسك.

ثم يا بني لتحسن من أخلاقك وتقوم نفسك، فإني أرشدك لأمور أذا طرقتها أعانتك على حمل نفسك على ما يزينها من جميل الأخلاق

- **وأول هذه الأمور:**

الدعاء

فإذا رغبت بني بالتحلي بمكارم الأخلاق، و التخلي من مساوئ الأخلاق- فلتلجأ إلى ربك،

ولترفع إليه أكف الضراعة؛ ليرزقك حسن الخلق، ويصرف عنك سيئها، ولهذا كان من دعاء النبي- عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «واهدِني لِأحسَنِ الأخلاقِ لا يهدي لِأحسَنِها إلَّا أنتَ واصرِفْ عنِّي سيِّئَها لا يصرِفُ عنِّي سيِّئَها إلَّا أنتَ»[1].

وكان من دعائه: «اللَّهُمَّ جَنِّبْني مُنكراتِ الأخلاقِ، والأهواءِ، والأعمالِ، والأدْواءِ»[2].

ثم مع الدعاء عليك بالمجاهدة لقوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [سورة العنكبوت: آية ٦٩].

---

(١) تخريج صحيح ابن حبان (١٧٧٢) إسناده صحيح على شرط مسلم

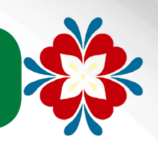
(٢) المستدرك على الصحيحين (١٩٧٣) صحيح على شرط مسلم

ثانيها: المحاسبة للنفس

وذلك بنقد نفسك إذا ارتكبت أخلاقا ذميمة، وحملها على ألا تعود إلى تلك الأخلاق مرة أخرى.

ثم النظر والتفكر في الآثار المترتبة على حسن الخلق: فإن معرفة ثمرات الأشياء، واستحضار حسن عواقبها- من أكبر الدواعي إلى فعلها، وتمثلها، والسعي إليها.

فكلما تصعّبت النفس بلوغ أحسن الأخلاق فذكّرها تلك الآثار، وما تجني بالصبر من جميل الثمار؛ فإنها حينئذ تلين، وتنقاد طائعة منشرحة؛ فإن المرء إذا رغب في مكارم الأخلاق، وأدرك أنها من أولى ما اكتسبته النفوس، وأجل غنيمة غنمها الموفقون- سهل عليه نيلها واكتسابها



وعليك بالنظر في عواقب سـوء الخلق: وذلك بتأمل مـا يجلبه سـوء الخلـق من الأسـف الدائـم، والهم المـلازم، والحسـرة والندامـة، والبغضـة في قلوب الخلق؛ فذلك يدعو المرء إلى أن يقصر عن مساوئ الأخلاق، وينبعث إلى محاسنها.

ثـم أسـع بني إلـى تحصيـل الأخـلاق وتمثلها في نفسك ومن جملة هذه الأخلاق:

أن تكون عفيفا

والعفة تحملـك على اجتناب الرذائـل والقبائح من القول والفعل، وتحملك على الحياء وهو رأس كل خير، وتمنعك من الفحشاء، والبخل، والكذب، والغيبة، والنميمة.

ثم كن شجاعا

والشـجاعة تحملـك علـى عـزة النفـس، وإباءة الضيم، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى الذي هو شجاعة النفس، وقوّتها على إخراج المحبوب ومفارقته.

وهـي تحملك على كظـم الغيظ، والحلـم؛ فإنه بقوة نفسك وشجاعتها تمنعها عن النزق والطيش.

ثم عليك بالعدل

فهو يحملك على اعتدال الأخلاق، وتوسطها بين طرفي الإفراط والتفريط؛ فيحملك على خلق الجود الذي هو توسـط بين البخل والإسراف، وعلى خلق

التواضع الذي هو توسط بين الذلة والكبر، وعلى خلق الشجاعة الذي هو توسط بين الجبن والتهور، وعلى خلق الحلم الذي هو توسط بين الغضب، والمهانة وسقوط النفس.

ثم كن بشوش الوجه طلق المحيا، وتجنّب العبوس والتقطيب

أخو البشر محبوب على حسن بشره

ولن يعدم البغضاء من كان عابسا

قيل للعتابي: إنك تلقى الناس كلهم بالبشر! - أي بوجه طلق مستبشر -.

قال: إن في ذلك دفع ضغينة بأيسر مؤونة،



واكتساب إخوان بأيسر مبذول.

ومما جاء في السنة حثا على هذا الخلق قوله ﷺ «كلُّ معروفٍ صدقةٌ وإن من المعروفِ أن تَلْقَى أخاك بوجهٍ طَلْقٍ وأن تُفْرِغَ من دَلْوِكَ في إناءِ أَخِيكَ»(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعروفِ شيئًا، ولو أنْ تلقى أخاكَ بوَجْهٍ طَلْقٍ»(٢).

۞ ومن أحكم ما قالته العرب:

ولربما ابتسم الكريم من الأذى

وفؤاده من حرّه يتأوّه

---

(١) سنن الترمذي (١٩٧٠) حكم المحدث: حسن

(٢) صحيح مسلم (٢٦٢٦)



فالابتسام للحياة يضيؤها، ويعين على احتمال مشاقها،والمبتسمون للحياة أسعد الناس حالا لأنفسهم ومن حولهم، ومن أعظم ما يعين على اكتساب هذه الخلّة الإقبال على الله عَزَّوَجَلَّ وطهارة القلب، وسلامة المقاصد وحب الخير للناس والتغافل عن اقوالهم.

ثم اعلم بني أن التغاضي والتغافل

من أخلاق الأكابر والعظماء، وهو مما يعين على استبقاء المودة واستجلابها، وعلى قطع العداوة و المباغضة.

ثم إن التغافل يرفع المنزلة، ويعلي المكانة وهو دليل على سموّ النفس،




قـال ابن الأثير عن صلاح الديـن الأيوبي: وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ حليما حسن الأخلاق، متواضعا، صبورا على ما يكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، يسمع من أحدهم مايكره، ولا يعلمه بذلك، ولا يتغير عليه.

وبلغني أنه كان جالسا وعنده جماعة، فرمى بعض المماليك بعضا بحذاء فأخطأته ووصلت الحذاء إلى صلاح الدين فأخطأته، ووقعت بالقرب منه، فالتفت إلى الجهة الأخرى يكلم جليسه؛ ليتغافل عنها.

وكان الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثير التغاضي عن كثير من الأمور في حق نفسـه، وحينما يسأل عن ذلك كان يقول:




لـيـس الـغـبـيّ بـسـيـد في قـومـه
لـكـنّ سـيّـد قـومـه الـمـتـغـابي

ثم عليك بالحلم وعدم الطيش والغضب

لأن الحلـم من أشـرف الأخـلاق، وأحقه بذوي الألباب؛ لما فيه من سلامة العرض، وراحة الجسد، واجتلاب الحمد.

وحد الحلم ضبط النفس عند هيجان الغضب.

وليس من شرط الحلم ألا يغضب الحليم، وإنما إذا ثـار به الغضب عنـد هجوم دواعيه كفّ سـورته بحزمه، وأطفأ ثائرته بحلمه.

فـإذا اتصـف المـرء بالحلـم كثـر محبـوه، وقل شانئوه، وعلت منزلته، ووفرت كرامته .

ومن الحلم والتغافل الإعراض عن الجاهلين

فمن أعرض عن الجاهلين حمى عرضه، وأراح نفسه، وسلم من سماع ما يؤذيه.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [سورة الأعراف: آية ١٩٩].

فبالإعـراض عـن الجاهلين يحفـظ الرجل على نفسه عزتها؛ إذ يرفعها عن أسافل الناس .

ثم ترفع عن مشــاغبة الجهلاء وســبابهم إذ أن الترفع عن ذلك من شـرف النفـس، وعلوّ الهمة، كمـا قالــت الحكمـاء: شـرف النفـس أن تحمل المـكاره – أي تتحملها – كمـا تحمل المكارم – أي تتصف بها ـ.

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إذا سبني نذل تزايدت رفعة

وما العيب إلا أن أكون مسابه

ولو لم تكن نفسي عليّ عزيزة

لمكّنتها من كل نذل تحاربه

فإذا بلغك أذى من قريب أو جار أو سباب ونيل منك فأعرضت عنه وترفعت عن الخوض فيما خاض فيه .

فعليك بنسيان الأذية

ليصفو قلبك له، ولا تستوحش منه؛ فمن تذكّر إساءة إخوانه لم تصف له مودتهم، ومن تذكر إساءة الناس إليه لم يطب له العيش معهم؛ فانس ما استطعت النسيان.

ثم اغلبهم بالعفو والصفح ومقابلة الإساءة بالإحسان

فهذا سبب لعلو المنزلة، ورفعة الدرجة، قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «وما زادَ اللهُ عَبْدًا بعَفْوٍ إلَّا عِزًّا»[1].

وفي العفو والصفح من الطمأنينة، والسكينة، والحلاوة، وشرف النفس، وعزها، وترفعها عن تشفيها بالانتقام- ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام

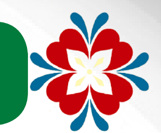
وامتثل في ذلك قول المقنّع الكندي:

وإن الذي بيني وبين بني أبي

وبين بني عمي لمختلف جدّا

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٨٨).




إذا قدحــوا لــي نــار حــرب بزندهم

قدحــت لهــم في كلّ مكرمــة زنــدا

وإن أكلــوا لحمي وفــرت لحومهم

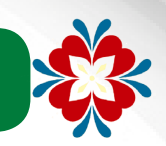
وإن هدموا مجــدي بنيت لهم مجدا

ولا أحمــل الحقــد القديــم عليهــم

وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

و يجدر بك بني توطين نفســك على لزوم العفو عن الناس كافة، وترك الخروج لمجازاة الإساءة؛ إذ لا سبب لتسكين الإساءة أحسن من الإحسان، ولا ســبب لنماء الإســاءة وتهييجها أشد من الاستعمال بمثلها.

ولا تظن أن العفو عن المســيء، والإحســان إليه



مـع القدرة عليه- موجـب للذلة والمهانـة، وأنه قد يجر إلى تطاول السـفهاء عليك ، فإن هذا خطأ؛ لأن العفو والحلم لا يشتبه بالذلة بحال؛ فإن الذلة احتمال الأذى علـى وجه يذهـب بالكرامة، أمـا الحلم فهو إغضـاء الرجل عن المكروه، حيـث يزيده الإغضاء في أعين الناس رفعة ومهابة.

فالعفو إسـقاط حقك جودا، وكرما، وإحسانا مع قدرتك على الانتقام، فتؤثر الترك؛ رغبة في الإحسان ومكارم الأخلاق.

ثم عليك بالسخاء

أن السـخاء محبة ومحمدة، كمـا أن البخل مذمة ومبغضة، فالسـخاء يجلب المودة، وينفي العداوة،

ويكسب الذكر الجميل، ويخفي العيوب والمساوئ.

ثم أعلم بني: أن السـخاء سخاءان؛ سخاوة نفس الرجل بما في يديه، وسخاوته عمّا في أيدي الناس.

وتركه ما في أيدي الناس أمحض في التكرم، وأبرأ من الدنس، وأنزه من العيب.

فـإن أنـت جمعتهمـا، فبذلـت وعففـت فقـد استكملت الجود والكرم.

ثم عليك بني بتجنب الغول الكبير وهو الغضب

لأن الغضـب جمرة تتقد في القلب، وتدعوك إلى السطوة والانتقام والتشفي.

فـإذا ما ضبطت نفسـك عند الغضـب، وكبحت جماحها عند اشتداد سورته- فإنه يحفظ عل نفسك

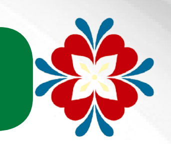
عزتهـا وكرامتها، وينأى بك عن ذلّ الاعتذار، ومغبة الندم، ومذمة الانتقام.

عـن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قـال: «**أَنَّ رَجُلًا قالَ للنَّبيِّ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **أَوْصِنِـي، قالَ: لا تَغْضَبْ. فَـرَدَّدَ مِرَارًا، قالَ: لا تَغْضَبْ**»(١).

قال الماوردي: فينبغي لذي اللب السوي، والحزم القوي أن يتلقى قوة الغضب بحلمه فيصدها، ويقابل دواعي شـرّته بحزمه فيردها؛ ليحظى بأجل الخيرة، ويسعد بحميد العاقبة.

ومما يعينك بني على تسكين الغضب ذكر الله عَزَّوَجَلَّ وأن تنتقل عن الحالة التي أنت عليها، فإن كنت واقفا فاجلس وان كنت جالسا فاضطجع، ثم

(١) صحيح البخاري (٦١١٦).



عليك أن تتذكر ثواب العفو وعواقب الغضب، وأن توطن نفسك على ما يصيبها من أذى الخلق، وأن لا يغلبك غضبك إذا غضبك بل عليك أن تصرع غضبك في مهده قبل أن يثور فتندم.

ثم تجنب بني الجدال واللغط ورفع الأصوات

لأن الجدال يذكي العداوة، ويورث الشقاق، ويقود إلى الكذب، ويدعو إلى التشفي من الآخرين.

فإذا تجنبته سلمت من اللجاج، وحافظت على صفاء قلبك، وأمنت من كشف عيوبك، وإطلاق لسانك في بذئ الألفاظ، وساقط القول.

ثم إن اضطررت إلى الجدال الذي تريد به إحقاق الحق وإقامة العدل فليكن جدالا هادئا يراد به.

الوصـــول إلــى الحــق، وليكن بالتي هي أحســـن وأرفق. قــال تعالــى: ﴿وَجَـٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [ســورة النحل: آية ١٢٥].

أمــا إذا لــجّ خصمك في الجــدال، وعلا صوته في المجلس فإن الســكوت وتــرك الجدال أولى لك في هذه الحال

ثم عليك بني بقبول نصيحة من نصحك إذا كانت حقا

فإنها مما تعينك على اكتساب الأخلاق الفاضلة، ويبعثك على التخلي عن الأخلاق الساقط.

فمن تقبل النصح وأخذ به، اكتمل سؤدده، وتمت مروءته، وتناهى فضله.

ومـن أهداك عيبك فعليك أن تتقبل ذلك بالبشـر والقبـول، وتظهـر لـه الفرح والسـرور بمـا أطلعك عليك من عيبك.

وعليك بالتسليم بالخطأ إذا وقعت فيه، فذلك آية حسـن الخلق، وعنوان علو الهمة، ثم إن فيه سلامة من الكذب، ومن الشـقاق؛ فالتسليم بالخطأ فضيلة ترفع قدر صاحبها، واحذر من تسويغك للخطأ فإنه منقصة لنفسك وزيادة لعيوبها.

ثم عليك بلزوم الرفق مع اهلك وأحبابك وعامة الناس

لقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكونُ في شَـيءٍ

إِلَّا زانَهُ، ولا يُنْزَعُ مِن شَيءٍ إِلَّا شانَهُ»[(١)].

أي أن الرفق لا يكون في شيء إلا أكمله وزينه وجعله محمودا، ولا ابتعد عن شيء إلا عابه وجعله قبيحا ناقصا

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ في الأمْرِ كُلِّهِ»[(٢)].

ثم يابني إن ابتليت بقريب أو زميل لا تطيقه نفسك لسوء خلقه أو لنفرة تجدها تجاهه.

عليك بـ(المدارة) له

والمداراة ترجع إلى حسن اللقاء، ولين الكلام،

---

(١) صحيح مسلم (٢٥٩٤).

(٢) صحيح البخاري (٦٩٢٧).

وتجنب ما يشعر ببغض أو غضب، أو استنكار إلا في أحوال يكون الإشعار به خيرا من كتمانه.

فمن المداراة أن يجمعك بالرجل يضمر لك العداوة مجلس، فتقابله بوجه طلق، وتقضيه حق التحية، وترفق به في الخطاب.

فالمداراة تزرع المودة والألفة، وتجمع الآراء المشتتة، والقلوب المتنافرة

وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إني أحيّي عدوي عند رؤيته

لأدفع الشرّ عني بالتحيّات

وأظهر البشر للإنسان أبغضه

كأنه قد حشا قلبي محبات

ثم عليك بني بسنام خصال الخير

وهو لزوم الصدق

فإن للصدق آثارا حميدة، وعوائد عديدة؛ فالصدق حسنة تنساق بصاحبها إلى الحسنات، فهو دليل على حسن السيرة، ونقاء السريرة، وسمو الهمة، ورجحان العقل.

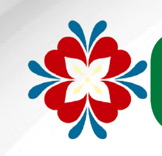
فبالصدق يشرف قدر المرء، وتعلو منزلته، ويصفو باله، ويطيب عيشه؛ فهو ينجي صاحبه من رجس الكذب، ووخز الضمير، وذل الاعتذار، ويحميه من إساءة الناس إليه، ونزع الثقة منه، كما أنه يكسبه عزة، وشجاعة، وثقة في النفس، فيظل موفور الكرامة، عزيز النفس، مهيب الجناب.

ولا يمكن أن يستقيم لأحد سؤدد، ولا تعلو له مكانة، ولا يحرز قبولا في القلوب، ما لم يرزق لسان صدق.

ثم إن الصدق يهدي إلى البر، وحسن الخلق من جملة ذلك البر.

ثم عليك بني بتجنّب كثرة اللوم والتعنيف على من أساء

فلا يحسن بالعاقل أن يسرف في لوم من أساء، خصوصا إذا كان المسيء جاهلا، أو كان ممن يندر وقوع الإساءة منه؛ فكثرة اللوم مدعاة للغضب، وغلظ الطبع. و موجبة للعداوة، ومجلبة لسماع ما يؤذي.



فـلا تعاتب إخوانـك وأحبابك علـى كل صغيرة وكبيـرة، بل التمس لهـم المعاذيـر، واحملهم على أحســن المحامـل، ثـم إن كان هنـاك ما يسـتوجب العتاب فليكن عتابا لينا رفيقا .

واحرص بني مصاحبة الأخيار وأهل الأخلاق الفاضلة

فهــذا الأمـر مــن أعظــم مــا يربــي على مــكارم الأخلاق، وعلى رسـوخها في النفـس؛ فالمرء مولع بمحاكاة من حوله، شديد التأثر بمن يصاحبه.

فـإذا ما وفق المــرء لصحبة الأجـلاّء العقلاء من ذوي الدين والمروءة- فإن ذلك من علامات توفيقه وهدايته.



فـإذا كان الأمر كذلك فحرى بـك بني أن تبحث عـن الإخوان الثقـات؛ حتى يعينوك علـى كل خير، ويقصروك عن كل شر.

ثم عند مجالستك بني لأهل ودك وصحبك

عليـك مراعـاة أدب المحادثـة والمجالسـة: بالإصغـاء للمتحدث، وتجنب مقاطعته، أو تكذيبه، أو الاستخفاف به، أو المبادرة إلى إكمال حديثه، أو القيام عنه قبل إتمام كلامه.

وتجنب الثرثرة والاستئثار بالمجلس، والحديث عن النفس على سبيل المفاخرة.

والحذر من سـرعة الجـواب، والتعميم في الذم، وتكـرار الحديث بـلا داع، وكثرة الأسـئلة، وتعمّد

الإحراج فيها.

وعليك بالحديث بما يناسب المقام، والتواضع لمن تتحدث إليهم.

ومراعاة المشاعر، وتجنب البذاءة وهجر القول.

وعليك أن تجلس في المجلس على هيئة محترمة، بعيدة عما ينافي الذوق، أو يشعر بقلة الأدب.

ويلزمك إلقاء السلام حال الدخول وحال الخروج، والتفسح في المجالس، وألا تقيم شخصا وتجلس في مجلسه ومكانه ، وألا تفرق بين اثنين متجالسين إلا بإذنهما، وألا تتناجى بصاحبك عن صاحبك الآخر إذا كنتم ثلاثة .

ثم عليك بلزوم الحياء

والحياء خلق حسن، يبعث على فعل الجميل في القول والفعل واللباس والهيئة وترك القبيح فيها .

فإذا تحليت بالحياء انبعثت إلى الفضائل، وأقصرت عن الرذائل.

والحياء كله خير، والحياء لا يأتي إلا بخير، والحياء خلق الإسلام، وهو شعبة من شعب الإيمان.

كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِن كَلامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إذا لَمْ تَسْتَحْيِ فاصْنَعْ ما شِئْتَ»(١).

---

(١) صحيح البخاري (٦١٢٠).

ثـم اعلم بني أنه إذا حسـنت أخلاق الإنسـان كثر مصافوه، وقل معادوه، فتسهلت عليه الأمور الصعاب، ولانت له القلوب الغضاب .

جعلـك الله بنـي ممن صلح عمله وحسـن خلقه وختم الله له بالخاتمة الحسنة.

والله أعلم وأحكم

كتبه

الواثق بربه

عبدالله بن محسن الصاعدي

الخميس ١٤/١٢/١٤٤٥هـ

